الأب لويس شيخو ومساهمته في اللغة العربيّة وآدابها

الأب كميل حشيمه اليسوعيّ*

المقدّمة: إبن الجزيرة العربيّة البارّ

في خريف العام ١٨٧٤، قرع بابَ دير ابتداء اليسوعيّين في بلدة غزير، شمالَ بيروت، فتًى لم يُكمل السادسة عشرة من عمره، طريُّ العود ولكنّه شديدُ العزيمة، مدركٌ وُجهةَ خُطاه، مصمِّم على استجابة الدعوة إلى خدمة الله والقريب، لا سيّما في مجال العلم والأدب. ولا غَرابة، فالشابّ متوقّدُ الذكاء، تبوّأ دومًا في أثناء دروسه الثانويّة مركزَ الصدارة بين أترابه، وأكبّ على التحصيل والتثقّف بجَلَدٍ وَرِثه عن أسرته، فهو ابن بلدة ماردين، القريبة من مدينة ديار بكر في شمال الجزيرة العربيّة وجنوبِ تركيا الحديثة، وقد عُرفت تلك الحاضرة بعِناد أهلها وصمودهم في وجه الغزاة وتمرُّدِهم على الطغاة. وماردين هي أيضًا من أعمال طُور عابدين، أي جبلِ المتعبّدين والرهبان، حيث احتمت الأقلّيّات المسيحيّة في أثناء الحروب التي توالت على المنطقة طوال أجيال، وحفظت شعلةَ الدين والعلوم مضاءةً وقّادة.

(*) مدير دار المشرق ومجلّة المشرق. ومقاله المدرج هنا هو مداخلة قام بها في إطار «مؤتمر الدراسات الشرقيّة» الذي أقامه، يوم ١٤/٢/٢٠٠٠، جامعة القدّيس يوسف في بيروت، إحياءً لذكرى مرور ١٢٥ سنة على تأسيسها. وكان المطلوب إلى كلّ مؤتمر أن يتكلّم ضمن مدّة لا تتعدّى خمس عشرة دقيقة.

على هذه الخلقيّة، من الإيمان الصلب والمثابرة على إنجاز الأعمال المرموقة مهما صعُبت، وإدراكٍ أهمّيّة الوجود المسيحيّ في الشرق منذ القديم، على الرغم من جهل الكثيرين دورَه في العالم العربيّ والإسلاميّ، شبَّ لويس شيخو وهبَّ إلى التحصيل والعمل.

فبُعَيد انتهائه من سَنَتَي الابتداء وسنتَيْن من الدراسات الأدبيّة واللغويّة، عُيِّن في بيروت أواخرَ العام ١٨٧٨، ولم يترك تلك المدينة حتّى وفاته إلّا لفترات أمضاها، للتخصّص والبحث، في النمسا وإنكلترا وفرنسا، بالإضافة إلى البلدان المشرقيّة والهند.

حلّ شيخو في جامعة القدّيس يوسف، يَدْرُس في البدايات الفلسفةَ وعلم اللاهوت، ويدرّس العربيّة وآدابَها في المعهد الثانويّ أوّلًا، ثمّ في الكلّيّة الشرقيّة لاحقًا، موزّعًا أوقاته بين التعليم والتأليف، لا يترك بابًا من أبواب الضادّ إلّا يطرقه، منجزًا، على مدى نصف قرنٍ ونيّف من الجهد الفرديّ ما تعجَز عنه المؤسّسات.

المعلِّم والعامِل، العالِم والعَلَم

١ - المعلّم المربّي.

شرع لويس شيخو يعلّم العربيّة وهو في الحادية والعشرين من عمره، حين لم يكن بين أيدي الطلّاب إلّا كتبٌ مدرسيّة نادرة، فأكبّ، مع نفر من إخوانه اليسوعيّين المتضلّعين من لغة الضادّ، أمثال: الأب جبرائيل إدّه، أوّلِ شرقيّ يترأّس الجامعة اليسوعيّة، وخليل إدّه، أخي رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة لاحقًا إميل إدّه، وأنطون صالحاني، وأنطون رياط، ولويس معلوف، على تأليف كتب مدرسيّة حديثة تواكب روحَ العصر مستندةً إلى خبرة اليسوعيّين العريقة في التربية والتعليم[1]. وأصدر معلّمنا الشابّ،

---

(١) كتب الأب أنطون رياط في رسالة بعث بها إلى شيخو يوم ٢٤ أكتوبر ١٨٩٦ ما تعريبه: «ما زلتُ أشكو امتناع مطبعتنا عن إعادة طبع كتاب المبادئ العربيّة طبعةً جديدة لفائدة الطلّاب، طبعةً تشتمل على دروس متدرّجة وتمارين مُنْزّجة... هل=

بدءًا من العام ١٨٨٢، وهو ابن أربع وعشرين سنة فقط، مجموعته الذائعة الصيت مجاني الأدب في حدائق العرب التي ظلّت، بأجزائها الستّة ومجلّدات شروحها الثلاثة الضخمة، الكتابَ المدرسيّ بالذات، تُدرَّس في جميع البلدان العربيّة، ويُعاد طبعها مرّات ومرّات، وهي، إلى الساعة هذه مطلوبة في الأسواق، حتّى إنّ المزوّرين يسطون عليها بدون وازع ضمير، وآخر عمليّة لهم كانت في العام الماضي! وما يدعو إلى العجب أنّ النصوص التي وردت في المجاني منتبسة، لا من مصادرَ مطبوعةٍ حديثةِ الإخراج والتدقيق، بل من بطونِ عشرات المخطوطات النادرة العسيرة المنال، فبوَّبَها شيخو ودرّجها من الأسهل إلى الأصعب، وشرحها لغةً وتاريخًا شروحًا بليغةً وافية.

وألّف بعد **المجاني** الكتاب تلوَ الكتاب، تارةً في اللغة، وطورًا في صناعة الأدب، وحينًا آخر في تاريخ الأدب نثرِه وشعرِه. فمِن كتبه الأوائل: **نزهة الطَّرْف في مختصر الصرف** (١٨٨٥)، **ومعرض الخطوط** (١٨٨٥)، **ومختصر في الصرف** (١٨٨٦)، **وعلم الأدب** في أربعة أجزاء (١٨٨٨) استعرض فيها علمَ الإنشاء والعَروض والخِطابة بالاستناد إلى نصوصٍ بليغة من مشاهير كتّاب العرب، وهذا الكتاب لا يزال حتّى اليوم مصدرًا لا غنى عنه لمَن يؤلّف في صناعة اللغة والبلاغة. أضف إلى ذلك ما دأب عليه العلّامة الشابّ من إصدار مختصراتٍ في متناول الطلّاب لكتبٍ لغويّة أو أدبيّة ضخمة حقّقها وهو لا يزال في مطلع مسيرته العلميّة، كمِثل **مختصر تهذيب الألفاظ** لابن السكّيت الذي جعله في ٤٥٠ صفحةً من الحجم الصغير، مقتبَسًا من الكتابِ الأساسِ الذي حقّقه، العامَ ١٨٩٥، في نحو ألف صفحة، وكمِثل **أنيس الجلساء في ملخّص شرح ديوان الخنساء**، طبَعه لطلبة المدارس، في العام نفسه، عن الديوان الكامل الذي حقّقه قبل سبع سنوات. والأمثلة من هذا القبيل كثيرة[٢].

=ينبغي أن تُضطرّ دومًا إلى استعمال كتاب الحكومة، وكأنّي به جُعل لئلّا يدرس فيه التلاميذ؟».

(٢) أطلب، مثلًا، تحقيقه ديوان أبي العتاهيّة، بين ١٨٨٦ و١٨٨٧، في طبعتَين، إحداهما للعلماء والثانية مختصرة للطلّاب.

وممّا تجدر الإشارةُ إليه في شأن ما قام به شيخو إبّان تولّيه التدريس، أنّه أنشأ في خريف العام ١٨٩٥ **المحفل الأدبيّ**، مستندًا في ذلك إلى أساليب التربية العريقة في مدارس اليسوعيّين، إذ كانت نخبةٌ من الطلّاب تُجمع في ندوات: «فيُبسَط لهم القول في مسائلَ أدبيّة ومباحثَ لغويّة ومشاكل تاريخيّة، لا يمكنهم الخوضُ فيها في المدارس العاديّة. وإذا انتهوا من التصنيف، جُمعت أشغالهم ونُقّحت ثمّ عُرضت على مسامع الجمهور في جلسات تُعقد أمام أعيان البلد»[٣]. وقد ضمّ المجمع الذي أنشأه شيخو عددًا من الذين أصبحوا بعد تخرّجهم شخصيّاتٍ بارزة، كالشيخ بشارة الخوري، أوّل رئيس للجمهوريّة اللبنانيّة المستقلّة، ويوسف السودا، السياسيّ الأديب واللغويّ، وسواهما، نذكر بعضًا منهم على سبيل المثال: الرسّام قيصر الجميّل، الزعيم السياسيّ وياض الصلح، الأديب الشاعر يوسف غصوب، العلّامة الموسوعيّ فؤاد أفرام البستانيّ، الراهب اليسوعيّ بشير آجيًا مؤلّف سلسلة الكتب المدرسيّة المعروفة بـ المنتخبات الأدبيّة[٤].

٢ - العامِل جامعُ المخطوطات ومحقّقُها

ولئن سعى شيخو المربّي لأن يعلّم ناشئة بلاده ويوفّر لها أسباب الدرس الفاعلة، فقد بذل أيضًا جهودًا جبّارة لإبراز كنوز الحضارة العربيّة وآدابها ولغتها، لا سيّما الدفينِ منها. فراح يجمع المخطوطات بالمئات يقتنيها متجشّمًا الأسفار البعيدة، حتّى إلى الهند، وينشئ الخزانة الشهيرة التي عُرفت **بالمكتبة الشرقيّة** التي ضمّنها نحوَ ثلاثة آلاف مخطوط، معظمها نادر جدًّا، ففهرَسَها[٥] وحقّق عددًا كبيرًا منها بطبعات علميّة

---

(٣) مجلّة المشرق ١ (١٨٩٨)، ص ٧٠٣.

(٤) خصّصنا المحفل الأدبيّ هذا بمقال مستفيض سينشر على صفحات المشرق في عدد مقبل بإذن الله.

(٥) من فهارسه المشهورة: المخطوطات العربيّة في خزانة كلّيّتنا الشرقيّة، والمخطوطات العربيّة لكتبة النصرانيّة. والمؤلّف الثاني هذا صدر مجدّدًا في آذار من السنة الجارية ٢٠٠٠.

حديثة المنهج، شَهِد له بجودتها أساطين المستشرقين، وكان بها قدوةً للبحّاثة الشرقيّين اللاحقين، من ذلك تحقيقه: تهذيب الألفاظ لابن السكّيت، وكليلةَ ودمنة، وحماسةَ البحتريّ، وطبقات الأمم لابن صاعد الأندلسيّ[٦].

٣ - العالِم المؤلِّف الموسوعيّ

بذل شيخو كلّ ما في وسعه ليجعل كنوز العربيّة في متناول الباحثين، ولكنّه أراد أن يكون هو نفسه في طليعة هؤلاء الدارسين، فألّف في مختلف فروع المعرفة عشرات الكتب، وصاغ مئات المقالات ليوفّر العلم وأدواته لا إلى المختصّين وحدهم، بل إلى جميع طالبي الثقافة.

وقد برزت جهوده تلك بخاصّة على صفحات مجلّة المشرق التي أسّسها في مطلع العام ١٨٩٨، أي منذ مائة سنة وستين، وحدّد أهدافها في افتتاحيّةِ عددها الأوّل بقوله إنّه: «وَضْعُ المقالات التي رأيناها أنسبَ لفائدة العموم وأوقع لديهم، مع تبيئة عدّةِ فقراتٍ ونُبَذ جامعة لشذور آداب الدنيا والدين، ومصنّفاتٍ تاريخيّة وفنّيّة ولغويّة وطبيعيّة وغيرِ ذلك من المعارف، لم نستثنِ منها سوى السياسيّة»[٧]. أمّا عنوان المجلّة، أي المشرق، فهو، على حدّ قول شيخو أيضًا: «ينطق بنفسه عن غايتنا ويقوم مقام لائحة مطوّلة، إذ آثرنا باختياره أن نبيّن لأهل الوطن أنّ جلّ مرغوبنا التحرّي لكلّ الأبحاث المتعلّقة بالشرق والطوائف الشرقيّة ونُفضّلها على سواها لئلّا يقال إنّ الغريب أدرى بما في البيت من أهله، لا سيّما ولا نزال نرى كثيرين من الأجانب يعكفون على تتبّع أخبار بلادنا واستبطان أحوالها»[٨]. وجدير بالذكر أنّه صدر من المجلّة إبّان حياة شيخو خمسةٌ

(٦) كتب العلّامة الإيطاليّ نلّينو في مجلّة المشرق الحديث (Oriente Moderno 1927, p. 633) ما مختصره: «لئن لمسنا في أُولى تحقيقات شيخو افتقارها إلى النقد الصارم بحسب المفاهيم الأوروبيّة، إلّا أنّ أعمال الراهب اليسوعيّ في السنوات الثلاثين الأخيرة تميّزت بأسلوب نقديّ يحاكي أسلوب علماء أوروبّا».

(٧) المشرق ١ (١٨٩٨)، ص ٣.

(٨) المشرق ١ (١٨٩٨)، ص ٣-٤.

وعشرون مجلّدًا بمعدّل ألف صفحة ونيّف لكلّ مجلّد، وكان نحوُ ثلث تلك الصفحات بقلم شيخو، وكثيرًا ما يُطبَع لاحقًا على حدة في كتب أو كتيّبات لتصل إلى أكبر عدد ممكن من القرّاء. وقد أحصينا لراهبنا العلّامة من الكتب الضخمة والمقالات الطويلة ما يقارب المائتَيْن وخمسين، ومن النبذ والمقالات القصيرة ما يزيد على الألفَيْن[٩]. كان شيخو، والحقّ يقال، موسوعةً حيّة لم يترك شاردةً من شوارد العلم إلّا اهتدى إليها وهدى.

٤ - القَلَم رافعُ لواء الأدب العربيّ المسيحيّ

لا شكّ في أنّ شيخو، على ما كان عليه من انفتاح على ثقافة الغرب، قد شُغف بآداب وطنه إلى حدٍّ قلَّ نظيره. إلّا أنّه رمى أيضًا، طوال حياته، ومن خلال جهوده برمّتها، إلى أن يبيّن أهمّيّة الدور الذي اضطلع به المسيحيّون في تكوين الحضارة العربيّة. من هنا كانت مؤلّفاته الشهيرة: **النصرانيّةُ وآدابها بين عرب الجاهليّة، شعراء النصرانيّة قبل الإسلام، شعراء النصرانيّة بعد الإسلام**، وسواها، بالإضافة إلى مؤلّفَيْن مهمَّيْن خَطّط لهما ولكنّه لم يُنجزهما، فأتيح لنا أن نُبرِزَهما إلى النور بعد تحقيقهما وإكمالهما، هما: **علماء النصرانيّة في الإسلام** (١٩٨٣)، **ووزراء النصرانيّة وكتّابها في الإسلام** (١٩٨٧). ويسعنا القول إنّه كان لشيخو الفضلُ في إبراز دور المسيحيّين الفعّال في ميادين حضارة العرب كافّة، وكان هذا الدور، قبل الراهب العلّامة، مهضومَ الحقّ، فأصبح اليومَ يُحسب له الحساب، وكثرت الأطاريح الجامعيّة التي تدرسه، وأنشئت المعاهد التي تغوص على كنوزه.

خاتمة وتقويم

أعجوبةً من أعاجيب زمانه كان الأب شيخو، على نحو ما كان

---

(٩) راجع كتابنا الأب لويس شيخو، ما كتبه وما كتب عنه، دار الشرق، بيروت، ١٩٧٨، ص ٢٠.

جابرة النهضة الآخرون من أمثال المعلّم بطرس البستانيّ وجرجي زيدان وإبراهيم اليازجيّ وغيرهم؛ فكانوا، وكان شيخو مثلَهم، معلّمين مربّين، باعثي كنوزِ تراثٍ دفينة، بحّاثةً مؤلّفين في كلّ باب ومطلع، موسوعاتٍ حيّة، روّادًا أصحابَ همّة لا تعرف الكلل ولا الملل.

أجل، من عداد الرعيل الأوّل هذا كان شيخو. ولئن اعتور بعض أبحاثه أحيانًا ضعفٌ في طريقة نقد المصادر نقدًا صارمًا، أو في استحصال بعض النتائج المتسرّعة، فمردّ المسألة إلى أنّ الروّاد لا يملِكون بعدُ جميع المقوّمات، وهم إلى ذلك في عجلة من أمرهم، يسعون إلى الهدف بخطى حثيثة، تاركين لمَن سيتبعهم من تلاميذهم، شأنَ التشذيب والتهذيب.

كان شيخو عملاقًا خلّدته أعماله الجليلة، ولكنّه عرف أيضًا أن يعبّد الطريق لسواه من اللاحقين، فكان من خيرة السابقين، ونِعْمَ القُدوةُ والمثال.

صدر عن دار المشرق